

نماذج من كتابات حول شارل مالك

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

عندما دخلت لأقابل الدكتور شارل مالك في غرفته رقم ٣٨٦٠، وجدت رئيس الجمعية العمومية للامم المتّحدة كما عهدته من قبل. فالنصب الرفيع - أرفع منصب في العالم - لم يبدّل من شخصيّة شارل مالك، وتبعاته الجسيمة الجديدة لم تعيّر من مسلكه وتصرفاته وحديثه. فهو ما برح محتفظًا بابتسامته وبتواضعه وبجراته في الترحيب بضيوفه، وبجوّ الدفء والثقة الذي يغمّر محدّته به. بل إنّ القمّة التي اعتلاها فوق أجماده السابقة قد زادت له لطفًا ووداعة تزيّن شخصيّة الفدّة، ووطنية المتّقدة، ودكاهه الحادّ، وعقله الراجح، وتفكيره السليم البعيد المرمى، وروحه الطيبة، وأخلاقه الدمثة.

فاضل سعيد عقل،

من كتاب فاضل سعيد عقل (ابن الشهيد)، إعداد وتوثيق كلودا فاضل عقل، تقدّم نقيب الصحافة محمّد البعلبكيّ، الطبعة الأولى، دار الفارابي، ٢٠٠٤، ص ١٩٠، أخذًا عن صحيفة الهدى، نيورك، ٢ كانون الأول ١٩٥٨.

####

بين أربعة أو خمسة رجال صنعوني، أضع شارل مالك في مرتبة أبي، لأنّه كان معلّمِي... ذلك أنّ بعضنا لا يزال من جيل كان فيه المعلّم بمثابة "سقراط"، يمسك بعقلك كما تمسك الأمّ بيد وليدها، ويقودك إلى المعرفة قيادَةً نيرةً بالحبّ، كما بالمنطق... فتتواضع أمام الحقيقة بنسبة ما تشغف بوجهها، بينما الحجب تتساقط حجابًا حجابًا إلى أن تكون لك الرؤية العظمى. ذلك كان حظنا من "الدكتور مالك". [...].

وذهب شارل مالك [...] لا ليكرز في الأمم المتّحدة عن لبنان فحسب، بل ليدخل عملاقًا أكبر من وطنه، في صراعات الأمم، كأنّه فريق في قضايا السلام والحريّة، وصوغ النظام الأفضل للأمم التّوّاقة إلى حقوقها، بينما نصفها لا يزال بعد غارقًا في مستنقعات الدماء، والدمار، التي خلّفتها الحرب العظمى، وزلازلها الذريّة والعقائديّة.

فصار لبنان الصغير كبيرًا لأنّه حاجم العالم، وجعل نفسه شريكًا في مصيره، لا متمسكًا على أبوابه، ينتزع، بالكلمة الحقّ، حقّه في تقرير مصير الإنسان، فكيف بتقرير مصيره هو، ومصير استقلاله.

غسان تويني،

"لرجل كان أكبر من وطن"، صحيفة النهار، ٢٩ كانون الأول ١٩٨٧.

####

لكنّ أكثر ما يفضح عصبّيته تبرمه بكلّ ما يقطع عليه الاستماع أو الإسماع. فالنقاش الجادّ يفترض خشوعاً لا يجوز فيه انتقاص.

فإذا فرغت ابتداءك بـ"يا حبّوب"، منادى من التودّد، سرعان ما سوف تكتشف أنه يغلف مقصلة فكرية هائلة سوف تسترجع مقولاتك واحدة واحدة وتعمل بها بترّاً وقطعاً. ثمّ يقف، يضع يديه في جيوبه، يمشي ذات اليمين وذات اليسار والمقصلة على أشدها. حتّى إذا ذهلت ذهولاً من صُعب كلّ هيكلية فكره، أخذ مكانه مرّة أخرى، وصمت.

وائل خير،

"شارل مالك"، صحيفة الأنوار، ١ كانون الثاني ١٩٨٨.

####

أظنّ أنّ متقصي العمارة الفكرية "الشارلمالكية" حاولوا البحث عن البطن الرخو لتوجيه "حامولة" اتّهامهم ضدّ هذا الكبير، إلّا أنهم طاروا بلا أجنحة، ولهذا سقطوا أمام موضوعيّة شارل مالك المتصق بخصائص البيئة اللبنانية وحميميّاتها بشكل إستثنائيّ جدّاً غير مألوف لدى كبارنا، من جبران خليل جبران إلى ميخائيل نعيمة...

وضّاح يوسف الحلو،

"شارل مالك الأديب والفيلسوف، نعوض غيابه بقراءة فكره"، ملحق صحيفة لسان الحال، ٣٠ كانون الثاني ١٩٨٨، ص ٤.

####

وبفضل شارل مالك تحوّل لبنان من مواقع جغرافيّة - تاريخيّة إلى مصدر مثاليّ على صعيد الحرّيات والتعايش، له رسالته ينشرها في العالم.

أسعد جرمانوس،

من كتاب أصول المارونيّة السياسيّة وجذور الحرّيات اللبنانيّة، بيروت، منشورات دار المراد، ١٩٩٦، ص ١٧٠ - ١٧١ .

####

في تلك الآونة شغل الديبلوماسيّ اللبنانيّ المرموق، شارل مالك، منصب رئيس اللجنة الثالثة للجمعية العموميّة، ولعب دوراً حاسماً في وضع نصّ هذا الإعلان. وهو نفسه كتب مرّة: "ما من مسألة أساسيّة في حياة الإنسان - من الله والدولة إلى الأطفال والضمّان الاجتماعيّ - لم تُقدّم ويتّم بحثها"، فيما الوفود من مختلف الدول يعلّقون ويصوّتون على كلّ مادّة، لا بل على كلّ كلمة، من مسودة الإعلان. ومنذ تبنيّه، تُرجم الإعلان إلى أكثر من مئتي لغة، وباتت مبادئه

تشكّل جزءًا لا يتجزأ من نسيج الحياة العموميّة والدوليّة. وتنتج عن الإعلان مجموعة لا يُستهان بها من القوانين، وأدى إلى تكوين وعي عالمي حول أهميّة حقوق الإنسان.

من كتاب شارل مالك دور لبنان في صنع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، دار نوفل، ١٩٩٨، ص ٧-٨.

####

وقد يقول قائل آخر إنّ نسبة إسهام مالك في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان "تلبّنتت" مع الوقت، أي اختلط فيها الواقع بالخيال، الحقيقة بالوهم، التقويم العلميّ المجرّد بالشاعريّة والخيال، ويمثّل اللبنانيين الفطريّ، العفويّ، إلى تضخيم الوقائع عمومًا، وإلى تضخيم دورهم في حصولها خصوصًا.

أنا شخصيًا كنت حذرًا جدًّا في ما خصّ النظرة إلى دور شارل مالك في وضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. ومصدر هذا الحذر، أو بالأحرى مصادره كثيرة. قد يكون أبرزها وأهمّها أنّ أصغر "حبة" في لبنان تصبح قبة إن لم نُقلّ قببًا، لنزعة عندنا إلى اعتبار أنفسنا محور الدنيا والكون والوجود. ألسنا نحن من يهتزّ طربًا كلّما سمعنا: "هالكم أرزة العاجقين الكون"؟! لكنّ المحاضر الرسمى لمناقشات لجنة حقوق الإنسان التي ينشر "نهار الشباب" بعضها اليوم للمرّة الأولى، بعدما حصل عليها من صديق ناشط في ميدان حقوق الإنسان، كان حصل عليها بدوره من الدكتور حبيب مالك، ابن الدكتور شارل مالك، الذي اهتمّ خصيصًا بسحب نسخ منها من أرشيف الأمم المتّحدة، هذه المحاضر تثبت لجميع المشكّكين والتوماويين - وأنا كنت من عدادهم - أنّ لبنان، بشخص ممثله الدكتور مالك، كان له دور كبير في وضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لأنّ ممثله في الأمم المتّحدة لم يكن رجل قانون أو دبلوماسيًا عاديًا، بل رجل فكر انطلق من بطرّام - الكورة، ليدرس الفلسفة على هوايتها في الولايات المتّحدة، وعلى هايدغر في ألمانيا. فكأنّ شارل مالك، في هذا الأمر، يختصر دور لبنان وحضوره في العالم. إنّه التقاطع الفكريّ الثقافيّ الحضاريّ بين الشرق والغرب، بين روحانيّة أرض الأنبياء والمرسلين، وعقلانيّة أرض الآلات والتكنولوجيّات والعلم البلا حدود.

ولعلّ أهميّة شارل مالك، في هذا، أنّه مدّ يده إلى كلّ زاد ثقافيّ وفكريّ في العالم، فأخذ منه، لكنّه لم ينس البتّة أنّه في الوقت عينه ابن الشرق، وأنّه ابن الأرض التي أنسنت الإله!

وليد عبّود،

"الإنسان أولًا"، صحيفة نهار الشباب، الثلاثاء ٨ كانون الأوّل ١٩٩٨.

####

يوم وقف شارل مالك يعلم الفلسفة في الجامعة الأميركيّة في بيروت أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، لم يكن قبله، في العالم العربيّ الحديث والمعاصر، أيّ معلّم لتاريخ الفلسفة أو لقضاياها. ربّما سبقه أساتذة يلقنون الطلاب، في

الغالب، ما يترجمونه عن الكتب الأجنبية، من غير أن يكون لهم رأي أو موقف معظم الأحيان. أمّا هو فكان معلّمًا، وكان يتكلّم بسُلطان.

تكلّم بسُلطان، نعم، لأنّه كان صاحب ثقافة واسعة ، بل نادرة، وعميقة، وكان واثقًا من نفسه. وقد أدرك أهميّة الفلسفة لأيّ نهضة عربيّة منشودة، ولكلّ تجديد مجلّد في طرائق الحياة والتفكير. منذ البداية، لم تنفصل اللغة عنده عن الفكر.

أديب صعب،

من كتاب هموم حضارية في الثقافة والسياسة والنهضة المنشودة، دار النهار، ٢٠٠٦، ص ٩١.

####

لقد امتاز شارل مالك في أنّه كان حارسًا لمفهوم المطلق، يونانيًا طوال هذا المسار، أرسطويّ المادّة والنهج، سقراطيّ التربية، غير منعكس من أفلاطون. أثينا عاصمة عقله ولو عرف من جاء بعدها. لا أظنّه سكن الفلسفة الألمانيّة ولو تأثر بواحد أو اثنين من كبارها. ذلك أنّ الألمان في فهمه لهم ردّوه إلى الإغريق، فقعدّ عندهم كما قعدّ عند تلميذ لهم كبير في القرون الوسطى.

المطران جورج خضر،

من كتاب وجوه غابت، رؤى في الموت، بيروت، تعاويّة النور الأرثوذكسيّة، ٢٠١٠، ص ٢١٤.

####